وليم بتلر يايتس

WILLIAM BUTLER YEATS

الشاعر الذى أوجد لإلهة أربا

١٨٦٥ — ١٩٣٩

للأستاذ عبد الكريم الناصرى

(تتمة ما نشر فى العدد السابق)

والحب عند يايتس صوفى، فذ فى صوفيته ونقاوته[1]. « هو لهب أبيض يحترق فيه كل ما له صلة بالأرض وبالتراب »

هو حب « شلى » ، « آربلى » ، حب مثالى لجمال مثالى

ولكن أين هذا المثل الأعلى من الجمال ؟ إن دونه الكلال والملال ، والهرم والشيخوخة، والصدى الذى لا يبل، والقلق الذى ما له من حد :

« خرجت إلى غابة البندق ، لأن ناراً كانت فى رأسى ، فاقتطعت غصناً وقشرته ، ومكنت بندقة من صنارة ، ووصلت الصنارة بخيط ، وساعة أن كان فراش العُشّ فى جو السماء، وكانت النجوم تبزغ رقراقة خفاقة وكأنها الفراش ، ألقيت الطعمة فى الجدول فصدت سمكة فضية صغيرة ، ثم وضعتها على الأرض ومضيت أنفخ النار لتلتهب ، ولكن شيئاً حف على الأرض ، وإنساناً هتف باسمى ، وإذا بها أمست فتاة تكاد فى الضوء الخافت المرتعش لا تبين، وفى شعرها زهرة تفاح ، وقد هتفت باسمى وفرت واختفت فى الفضاء الرفاف بأضواء اللهب

ألا إنى وإن كان أهرمنى التطواف الهائم خلال النجاد وخلال الوهاد ، لواجد يوماً ملاذها ومأواها، فقبل ثغرها ومتناول يدها، ثم سائر وإياها بين العشب المرقط الطويل ، ثم مقتطف حتى آخر الزمان ، تفاح القمر الفضى ... وتفاح الشمس الذهبى »

وعُجزة الحب فى هذه الدنيا أنه لا يدوم . إن يايتس ليعترف بهذه الحقيقة ، ولكنه فى بعض الأحيان يأبى أن يعترف :

« أيها الجبين الشاحب ! أيتها اليد الساكنة ! أيها الشعر المظلم ... لقد كان لى صديقة جميلة ؛ ولقد خيل إلى أن اليأس القديم سينتهى بالحب فى النهاية ، ولكنها نظرت ذات يوم فى قلبى فرأت صورتك هناك فابتعدت باكية »

على أنه يؤمنُ بأن القلب إذا كان عاجزاً عن صدّ عاديات الزمن ، عاجزاً عن الاحتفاظ بالحب والروح جبيسة الجسد ، فانه يعود قوياً نشيطاً ويسترجع الحبَّ القديم جديداً كما كان أوّل ما بدأ ، بعد انطلاق الروح ...

« أيها القلب الرّثيث البالى »

« أخرج سالماً من شبَك الضلال والصواب »

« إضحك — أيها القلب — ثانية فى الغسق الأشهب »

« تنهد — أيها القلب — ثانية بين ندى الصباح »

« أما والقلبُ والروحُ رهينا الجسد »

« فإن الحبَّ أقل رفقاً من الغسق الأشهب »

« وإن الأمل أقل نفاسة من ندى الصباح »

والشاعر من أجل ذلك يتمنى لحبيبته الموت . فلو أنها ماتت لعادت إليه وقد صفحت عنه ، لأنها ماتت، وعند ذلك يضم جمالها إلى صدره .

ثم إن حبيبة هذا الشاعر أجل مخلوق فى الوجود . بل هى

(١) أعنى « بالصوفى » : « أن فيه شدة أو نشوة روحية عظيمة » . فارجو ألا ينصرف الذهن إلى التصوف بالمعنى الاسلامى . على أن « صوفية يايتس » صوفية مستحدثة لا يمكن تقريبها إلى النفس إلا بترجمة شعرية دقيقة لشعره .

المرأة الجميلة الوحيدة . ثم إن الناس جميعاً، بل الكون جميعه، يحبها حبَّ عبادة وتقديس :

« ما عليك إلا أن ترفعي يداً من شحوب اللآلئ ، وتجمعي ما تفرّق من غدائر شعرك ثم تنهدي ... فإذا قلوب الرجال جميعاً تتأجج وتخفق ؛ ثم لا يعيا الزَّبدُ على الرمال المتعة ، ولا النجوم وهي تصعد في السماء يتنزّل منها الندى إلا لتنير قدمك العابرة »

وإذا كان هذا هو شأنها ، فأيّ هدية إذاً تليق بها ؟ !

« لو كنت أملك أنسجة السماء الموشاة
« تطرّزها أشعة من ذهب وفضة »
« ما بين أزرق ومعتم وأسود »
« من ليل أو نهار أو شبه ليل أو نهار »
« إذن لنشرت تلك الأنسجة تحت قدميك »
« ولكني فقيرٌ ما أملكُ إلا أحلامي »
« ولقد نشرت أحلامي تحت قدميك »
« تخفف الوطء لأنك تطئين أحلامي »

أحلام الشاعر ! أجل أحلامه ...

« ماذوت الأغصان لأن ريح الشتاء هبّتْ عليها »
« قد ذوت الأغصان لأني قصصت عليها أحلامي »

* * *

وكما أن الحب عند بايتس مقدّس لا يعلوه شيء، فكذلك اللهو البريء — الرقص والموسيقى — مقدس لا ينبغي أن يُنزل منزلة التحنث والصلاة ، لأنه أعلى منهما وأقدس :

حين أعزف على ربابي في (دُونِي)
يرقص القوم مثل موجة البحر(١)

وابن عمي راهب في كفارنتْ
وأخي راهب في مُهارَبوي .
لقد فُقتَ أخي وابن عمي ،
فهما يقرءان في كتب الصلاة
وأنا أقرأ في كتاب الأغاني ،
كتاب شربته من سوق الريف .
وحين نتقدم في آخر الزمان
من (بطرس) وهو جالس على عرشه الفخم
سوف يبسم للأرواح الثلاثة القديمة ،
ولكن يدعوني أنا أولاً إلى الدخول
لأن الخيّرين هم المرحون ،
إلاّ من عثَر بهم الحظّ النكود . . .
والمرحون يحبّون الرّباب ،
والمرحون يحبون الرقص .
وحين يلمحُني القوم هناك
سوف يترا كضون نحوي صائحين :
« ها هو ذا منشدُ دوني ! »
ثم يرقصون مثلَ موجة البحر

— ٤ —

وراء كل أدب عظيم فلسفة . والستر يتس يلخص فلسفته فيما يلي :

« إني أعتقد بتعاطي فلسفة ما تواضعنا على تسميته بالسحر أو ما ينبغي لي أن أسمّيَهُ استحضار الأرواح — وإن كنت لا أدري ما هيه — أو بالقدرة على خلق أوهام سحرية ، أو بالكشافات Visions الحقّ في أعماق النفس إذ العين مغمضة ؛ وإني لأعتقد بثلاثة مبادئ :

١ — أن حدود النفس Mind في تحوّل دائم ، وأن الأنفس الكثيرة تستطيع أن تتصل أو يسيلَ بعضها إلى بعض إن صحّ هذا التعبير ، لتخلقَ أو تُظهر نفساً واحدة ، طاقة واحدة

٢ — أن حدود الذاكرة هي أيضاً في تحوّل دائم ، وأن ذاكراتنا جزء من ذاكرة واحدة كبرى هي ذاكرة الطبيعة نفسها

(١) لعل التعبير ينقصه شيء من « الروح العربية » ، ولكني — ولا أدري على التحقيق السبب — أوثره على غيره ؛ وقد كان بامكاني أن أقول : « يرقص القوم كما ترقص موجة » ، فأكسب الوزن أيضا . بهذه المناسبة أذكر أنّ الأستاذ العقاد ترجم هذه القطعة ، فكانت ترجمته لهذين البيتين هكذا :

« إذا عزفت على الربابة في دوني »
« رقص الناس كما ترقص الأمواج »

إن « الجو الشعري » الذي تحمله كلمة « الناس » يختلف عن الجو الشعري الذي تحمله كلمة « Folk » التي يمكن التعبير عنها — تعبيراً فنيا جيداً — بكلمة « القوم » . ثم إن قوله : « كما ترقص الأمواج » يوحي بشيء من « الفخامة » ويدل على « الاضطراب » في حركات الراقصين فالترجمة بافراد الأمواج هي الصحيحة ، وهو ما أراد الشاعر بقوله : « Like a Wave of the sea »

٣ — أن هذه النفس الكبرى وهذه الذاكرة الكبرى يمكن استحضارهما بوساطة الرموز

إن هذه « الذاكرة الكبرى » هى مخزن الرموز . وما الشاعر الرمزى إلا ساحر يقوم بدور الوسيط لاستحضار هذه الرموز — هذه الأرواح — ولكنه لا يخلق منها شيئاً . وعلى ذلك فكل ما نحس من عاطفة أو نرى من رأى أو نطلب من هدف ليس لنا ، « وإنما صعد إلينا من الجحيم أو هبط علينا من السماء »

ولكى يستطيع الشاعر استدعاء هذه المعانى والرموز والعلاقات ، ينبغى له أن يجعل نفسه فى حالة سلبيّة — أن يجعلها كالماء الساكن تنعكس عليه شتّى الصور . قال يايتس :

« كنت ذات مرة أنظم قصيدة شديدة الرمزية والتجريد فاتفق أن وقع قلمى على الأرض ، فلما انحنيت لالتقاطه تذكرت حادثاً من حوادث الخيالات والأحلام (Fantastic) ، ولكنه لم يبد لحظتئذ أنه منها بل كأنه وقع لى فعلاً . فلما سألت نفسى متى حصل هذا الحادث وجدت أنى إنما كنت أتذكر أحلامى فى عدة ليال . ثم حاولت أن أتذكر ما فعلته فى اليوم السابق ، وما فعلته فى الصباح ، فلم أستطع ، إذ كانت حياة الوعى واليقظة قد غادرتنى كلها ، وما استطعت ذلك إلا بعد جهد شديد ، فلما تذكرتها غادرتنى بدورها حياة الأحلام التى هى أقوى من حياة الوعى وأروع . فلو لم يسقط قلمى لما فطنت قط إلى أن التأمل استحال غيبوبة »

* * *

إن آراء يايتس الجمالية تتصل بفلسفته[1] هذه اتصالاً منطقيًّا وثيقاً

فغاية الفن استحداث نشوة Ecstasy فى النفس الدائمة التقلب مصدرها مايعرضه الفن من حقائق الكون وعناصره الثابتة

وما دامت هذه هى غايته وهذه هى وظيفته ، فلا موضع فيه إذن « لعلم عصره أو سياسته أو فلسفته أو أخلاقياته » لأن هذه الظواهر جميعاً فى تطور مستمر ، وتغير دائم

وخليقٌ بالفن إذاً أن يرتدّ إلى روح ماض كان الناس فيه يعبدون الطبيعة ، ويدينون بالوثنية ، ويعيشون « فى عالم يستطيع كلُّ شىء فيه أن يتبدل ويستحيل ، ويصير أى شىء آخر ؛ وبين الآلهة العظام الذين كانت عواطفهم فى الغرب . اللهب ، وفى الرعد وفى هواطل الرعود » ... وفى تلك الأزمان « التى كانت الحزمة المسكينة من الحلفاء فيها » كما يقول الشاعر « ينظر إليها على أنها كانت يوماً من الأيام ... إلهة تضحك بين النجوم »

هذه الحقيقة ، حقيقة أن الفن لا يكون عظيما إلا إذا اعتمد على أساطير الأقدمين من عبدة الطبيعة ، وما فى عالمها من خصب وغنىً ومن حياة زاخرة فياضة ، هذه الحقيقة أدركها «الأساتيذ»[2] العظام جميعاً .

* * *

لقد لخّص موقف يايتس فيلسوفاً بهذه العبارة: إنه رجل يعتقد بوجود عالم الغيب[3] »

وحين نشر يايتس لأول مرة (١٩٠٣) كتابه « فكرات عن الخير والشر » أبى بعض ناقديه ومراجعيه أن يسلموا بأن المؤلف يعتقد بالذى يقول . ولكن أن يعتقد الإنسان بما يقول أو لا يعتقد لا صلة له فى الواقع ، بصواب رأيه أو ضلاله . ولست أدرى ، مع المستر ريد ، لم يعلق الناس هذه الأهمية الكبرى على موقف صاحب الرأى من رأيه . إن العقيدة الفنية على كل حال تتعلق قبيل كل شىء بالجمال . فأيما شىء خاطب شعور الفنان بقوة واستمال خياله بشدّة ، مالَ إلى الخروج من عالم الخيال إلى عالم الحقيقة واليقين . « وحسب الشىء أن يكون على درجة من الجمال كافية ليرتدّ جزءاً من عقيدته ، جزءاً من دينه . وهذا هو الذى عناه كيتس حين نطق بقوله المشهور : (الجمال الحق والحق الجمال) »

* * *

هذه نظرة سريعة فى « و . ب . يتس » : عمله وفنّه وفلسفته ، أرجو أن أكون استطعت فيها أن أعطى القارئ فكرةً حسنةً عنه ، وهو الأديب المقلّد الشخصية ، الضبابىُّ المعانى . وأرجو أن يتسع لى الوقت لأترجم لقراء الرسالة بعض آثاره الشعرية والمسرحية[3] . وهنا أحبّ أن يعلم القارئ جيداً أن « يايتس » — بالرغم من كل هذه « الغرابة » الظاهرية فى أدبه — لم يصنع أكثر من أنه عبّر بإخلاص عن «عبقرية أرلندا »

« بغداد » عبد الكريم الناصرى

(١) من الصعب بالطبع إدراك هذه الفلسفة من شعر يايتس ولكنه شرحها شرحا وافيا فى كتابه Jdeas of Good and Evil وأنا لم أطلع على هذا الكتاب، ولذلك اعتمدت على كتاب فورست F. Reid, W. B. Yeats.

(٢) Masters.

(٣) The invisible world. لقد بدأت فعلا بترجمة مسرحيته المشهورة : The Shadouy Waters وهى على قصرها أشد مسرحياته تمثيلا لروح أدبه .